﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧﴾ [الحجر: 87]

مَنْ أوتي القُرْآنَ شَغَلَهُ النَّظَرُ فيهِ وامتِثالُ تَكاليفِهِ، عَنِ الاشْتِغالِ بِزَهْرَةِ الدُّنْيا

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا صَبَّرَ اللّٰه تعالى نبيَّه عَلَى أذى قَوْمِهِ وأمَرَهُ بأنْ يَصْفحَ الصَّفْحَ الجَميلَ أتْبَعَ ذَلِكَ بِذِكْرِ النِّعمةِ العَظيمَةِ الَّتي خَصَّ اللّٰه تَعالَى مُحَمَّدًا ﷺ بها، ليَسْهلَ عليه تحمُّلُ إيذاءِ المشركين إيّاه؛ لأنَّ الإنْسانَ إذا تَذَكَّرَ كَثْرَةَ نِعَمِ اللّٰه عَلَيْهِ سَهُلَ عَلَيْهِ الصَّفْحُ والتَّجاوُزُ(1).

وأيضًا لمّا صبّر اللّٰه تعالى نبيَّه ﷺ على أذيَّة قومِه ذكّرَه بالنّعمة العظيمةِ التي خصَّه بها فقال: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾، فيَطْمَئِنَّ بأنَّهُ كما أحْسَنَ إلَيْهِ بِالنِّعَمِ الحاصِلَةِ فهوَ مُنْجِزُهُ الوُعودَ الصّادِقَةَ(2).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمَثَانِي﴾: أصلُ (ثني): أَصْلٌ واحِدٌ، وهو تَكْريرُ الشَّيءِ مَرَّتَيْنِ، أو جَعْلُهُ شَيئَيْنِ متواليَينِ أو مُتبايِنَين، وذلك قولُكَ: ثَنَيْتُ الشَّيءَ ثَنْيًا(3)، والاثنان أصلٌ لـمُتصرِّفات هذه الكلمة، ويُقال ذلك باعتبار العدَد، أو باعتبار التَّكرير الموجود فيه أو باعتبارهما معًا(4)، والثِّنَى: الأمرُ يُعادُ مَرَّتَيْنِ، والثِّنايَةُ: حَبْلٌ مِنْ شَعَرٍ أَوْ صوف، ويُحْتَمَلُ أنَّهُ سُمّيَ بِذَلِكَ لأنَّهُ يُثْنَى أوْ يُمكِنُ أنْ يُثْنَى، والمَثْناةُ: ما قُرِئَ مِنَ الكِتابِ وكُرِّرَ(5)، والسَّبعُ المَثاني: هي سورَةُ فاتحةِ الكِتابِ؛ لأنَّها يُثَنَّى بها، أي: تُعادُ في كُلِّ رَكْعَةٍ مِنَ الصَّلاةِ، فاشْتِقاقُها مِنَ اسمِ الاثنَينِ، المُرادُ به مُطلَقُ التَّكريرِ(6).

---

(1) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 9/217، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/158.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/79.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثني).
(4) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ثني).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثني).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (ثني).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لقد امتنَّ اللّه ﷻ على نبيِّه ﷺ بالمنَّة العظمى، وهي إنزال القرآن عليه فقال: ولقد أنعمنا عليك إذ أنزلنا إليك فاتحة الكتاب، وهي سبع آيات تُثنَّى وتُكرَّر في الصَّلوات الخمس وغيرها، ويُثْنى بها على اللّه ﷻ؛ وهي القرآن العظيم، وتخصيصُ الفاتحة بالذِّكر واعتبارها القرآنَ الكريم؛ لمزيد فضلها ورفيع مكانتها، ولاشتمالها على مقاصد القرآن كله(1).

التَّسلية والبشارة للرَّسول ﷺ بالسّبع المثاني والقرآن العظيم

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في ﴿وَلَقَدۡ﴾ ودلالتها في السّياق:

الواو إمّا أن تكونَ عاطفةً؛ فتكون من عطفِ القصّة على القصّة، أو الغرض على الغرض، وإمّا أن تكون استئنافيَّةً؛ لتفيدَ افْتِتاحَ غَرَضٍ ومشرَعٍ آخر هو التَّنْويهُ بِالقُرْآنِ وقصر النّظر عليه، والتَّحْقيرُ لِعَيْشِ المُشْرِكِينَ وما يتمتّعون به في هذه الحياة الدنيا(2).

التَّنْويهُ بِالقُرْآنِ والحثُّ على قصر النّظر عليه

بلاغةُ القسم وغرضه في السّياق:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ﴾، لمّا كانت اللّام جوابَ قسم مقدَّر أفادَ القسمُ وجوابُه تعظيمَ المقسم عليه وهو إتيانُ اللّه تعالى نبيَّه ﷺ سبعًا من المثاني وإتيانَه القرآنَ العظيم، للإشعارِ بأنَّه يستحقُّ الإصغاء إليه والاعتناء بما آتاه اللّه تعالى.

تعظيم القرآن بالقسمِ، تنويهٌ بشأنِه ودعوةٌ للإصغاء إليه

نكتةُ التَّعبير بالفعل ﴿ءَاتَيۡنَٰكَ﴾، دون (أعطيناك):

عُبِّرَ بالإتيان المفيد لمعانٍ لا يفي بها سوى هذا اللفظ، فالتعبير بالفعل ﴿ءَاتَيۡنَٰكَ﴾ أفادَ معنى الإعطاء والتنزيل والإيحاء، ومجيئه بصيغة المتعدّي إلى مفعولين أفادَ معنى تحصيل المُؤتَى بأن يكون بين يديِّ المُؤتَى إليه، للإشعار بأنَّ اللّه تعالى أوصلَ السبع آياتٍ والقرآن

إيثار اختيار لفظ الإيتاء لمناسبةِ المعنى وسياقِه

(1) القرطبي: 10/55، والشّنقيطي، أضواء البيان: 2/315، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 5/576.
(2) الطيبي، حاشية على البيضاوي: 9/58، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/79.

العظيم إلى سيدنا محمَّدٍ ﷺ بسهولةٍ فضلًا منه ونعمةً، كما أوثِرَ فِعْلُ ﴿ءَاتَيۡنَٰكَ﴾ دونَ (أَوْحَيْنا) أَوْ (أَنْزَلْنا)؛ لأنَّ الإعْطاءَ بما دلَّ عليه لفظ ﴿ءَاتَيۡنَٰكَ﴾ أظْهَرُ في الإكْرامِ والإنعامِ والمِنَّةِ[1].

غرضُ الخطابِ بالضّميرِ في ﴿ءَاتَيۡنَٰكَ﴾:

إتيانُ سبعٍ من المثاني والقرآنِ العظيمِ، خاصٌّ برسول الختام دون سائر الأنام

أفاد ضمير الخطاب تحقيقَ عظمةِ منَّة اللّه تعالى على سيدنا رسولِ اللّه ﷺ؛ بأنَّ إتيان سبعٍ منَ المثاني والقرآن العظيم خاصٌّ بك لم يؤته أحد قبلك ولا يكون لأحدٍ بعدَكَ، ففيه تشريفٌ للمخاطب ﷺ لشرف الخطابِ وتعظيم الإنعام والمنعم به.

غرضُ تنكير لفظ ﴿سَبۡعٗا﴾:

للسّبعِ المثاني خصوصيَّةٌ، وشأنٌ ليس كشأنِ سائرِ القرآن

لمّا كان جاء لمّا جاء لفظ (سبعٍ) مذكَّرًا دلَّ على أنَّ تمييزه مؤنَّثٌ، فتقدير الكلامِ آتيناكَ سبع آياتٍ أو سورٍ منَ المثاني، والظّاهر أنَّ المراد سبعُ آياتٍ، وهي سورةُ الفاتحة في قولِ أكثرِ المفسرين[2]، وجاء لفظ ﴿سَبۡعٗا﴾ بصيغة النّكرة لتفخيم هذه الآياتِ السبْعِ وتعظيمِها ولبيانِ أنَّ لها شأنًا غيرَ شأنِ سائر القرآن.

بلاغةُ التّعبير، بقوله: ﴿سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾:

الفاتحة هي السّبع المثاني، لانصراف الذّهن إليها

لمّا قال اللّه تعالى: ﴿سَبۡعٗا﴾ دلَّ على أنَّ مميّزه محذوف، والظاهر أنَّه بتقدير (آياتٍ)، فأصلُ الكلامِ آتيناكَ سبعَ آياتٍ[3]، فلمّا حذف التّمييز نوّن المميَّز، ليفيد أنَّه معلومٌ واضحٌ فلا يحتاجُ إلى بيانٍ، وأنَّ الذّهن ينصرف إليها بمجرَّد ذكرِها، ولهذا كان القول بأنَّ المراد منها سورة الفاتحة هو الظّاهر، وفي التّنكير تعظيم لشأنِ السّبع وتفخيمها.

معنى حرف ﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾:

ألفاظ القرآن وعجائبه، تثنّى ولا تنقطع بمرور الأزمان

تحتمل ﴿مِّنَ﴾ أن تكون للتّبعيض فيكون ﴿ٱلۡمَثَانِي﴾ اسمًا لِلقرآن،

(1) العكبري، التبيان: 2/787، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/79.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/161.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/195.

أي سبعًا مِن القرآن الَّذي هو مثاني، لأنَّ ألفاظَه تثنّى على مرور الأوقات وتكرّر في القراءةِ فلا تَدرُسُ ولا تنقطع دون سائر الأشياء التي تضمحل وتبطل على مرور الأيام، ولأنَّ القصص والأخبار تثنى فيه وتردد، ولأنَّ معانيَه وفوائدَه تتجدّد حالًا فحالًا فلا تنقضي عجائبه، فهي تثنّى بمرور الأوقاتِ والأزمانِ، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: 23]، فيكون قد وصف القرآن بوصفين، فوصفه هنا بالمثاني، ووصفه بالعظم في قولِه ﴿وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾، كما تحتمل أن تكون لبيان الجنس، كقوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج: 30][1]، فيكون لفظ ﴿ٱلۡمَثَانِي﴾ جنسًا للسبْعِ ووصفًا للفاتحة؛ لأنَّها تُثَنَّى في كُلِّ صلاة، ولأنَّ معانيَها من أوَّلها إلى آخرها على المثاني، فيكون قد وصف الفاتحة بوصفين المثاني والعظم لأنَّها جزء من القرآن[2].

معنى (ال) في لفظ ﴿ٱلۡمَثَانِي﴾:

أهميّة التّعريف في معنى المثاني، ودلالته في السّياق

تحتمل (أل) أن تكون جنسيَّة فيكون لفظ ﴿ٱلۡمَثَانِي﴾، وصفًا للسّبعِ وتكون ﴿مِّنَ﴾ لبيان الجنسِ، وتحتمل أن تكون للاستغراق، بمعنى استغراق سور القرآن، فتكون ﴿مِّنَ﴾ للتبعيض كما تقدَّم.

دلالة لفظ ﴿ٱلۡمَثَانِي﴾:

تنوّع معنى المثاني تعظيم لشأنِ القرآن، وتعميمٌ لمعانيه المبهرة

الظّاهر أنَّ لفظ المثاني جمعُ مَثْنَى، فهو مشتقٌّ مِنَ التّثنية، وفعله ثنى يثني، والمُثَنّاةُ كُلُّ شَيءٍ يُثَنَّى، أيْ: يُجْعَلُ اثْنَيْن، فيكون المراد تثنية القراءة والمعاني أو تثنية القصص إن أريد بالمثاني القرآن، فيَكونُ استِعْمالُ المثاني على هذا المعنى على طريق المجاز المرسل بِعَلاقَةِ الإطْلاقِ، أو يكون كِنايَةً لأنَّ تَكْريرَ الآياتِ بقراءتها في الصّلاة لازِمٌ للفاتحةِ، أو تكرير المعاني لازمٌ للقرآن، ويحتمل أن

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/185، وأبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 9/217، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/161.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/373.

يكون مثنى منَ الثّناء، فيكون وصفًا للفاتحة أو للقرآن على حسبِ معنى ﴿مِّنَ﴾، كأنَّ الفاتحة تُثني على اللّه بصفاته الحسنى، على طريق الإسناد المجازي أي بإسناد الثّناء إلى الفاتحة أو القرآن، أو يكون الكلامُ على طريق الاستعارة المكنيَّةِ بتشبيه سورة الفاتحة أو القرآن بالشخصِ المثني على غيرِه بالجميل ثمَّ حذف المشبَّه به وذكر شيءٌ من لوازمِه وهو الثّناء[1].

نوعُ عطفِ جملة ﴿وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾ على السّابق:

عطف العامّ على الخاصّ تعظيمًا وتشريفًا لسورة الفاتحة

لمّا عطفَ ﴿وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾ على ﴿سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ كان من عطفِ الكلِّ على البعضِ أو العامِّ على الخاصِّ تعظيمًا لشأنِ الفاتحة وتشريفًا لها، لتكرّر ذكرها في ضمنِ القرآن العظيم، ففي العطفِ إشعارٌ بأنَّها أشرفُ سورِ القرآنِ، وأنَّ لها مزيدَ فضيلةٍ وخَصوصيَّةٍ على سائر السّور، وفيه تنبيه للمخاطبين على المبالغة في الاعتناء بها، وليَعْلَمَ أنَّ إيتاءَ القُرْآنِ كُلِّهِ نِعْمَةٌ عَظيمَةٌ[2].

براعة دلالة جملتي العطف في سياق الآية:

دلالة الجملتين على الثّناء والتنبيه والتّعظيم

تدلُّ جملتا العطفِ ﴿سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾، على ثناء وتنبيهٍ وتعظيم، فأمّا الثّناء فهو على الفاتحة والقرآن بما وُصِفا به؛ إذ وصف السبع بأنّها من المثاني ووصف القرآن بأنّه عظيمٌ، فكانَ لكلِّ موصوفٍ وسمُه مع اشتراكِ كلِّ موصوف منهما بصفة الآخر، فالقرآن هو المثاني والسبعُ آياتٍ عظيمةٌ؛ لأنَّها من المثاني، وأمّا التَّنبيه فهو لحَثِّ المؤمنين على الاهتمامِ بهما بما ذكرَ من وصفيهِما، وأمّا التّعظيم فهو في بيانِ شأنِهما عندَ اللّه تعالى.

توجيه تخصيص القرآن بالذّكر، دون بقية الأسماء:

القرآن هو الحاوي جميعَ علوم الأولين والآخرين

لمّا كان الكلام على جهة تعظيم المخاطبِ بما أنعم عليه من

(1) الطيبي، حاشية على الكشاف: 9/59، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/80.
(2) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 9/219، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/81.

المنزَّل، كان الأنسبُ ذكرَ الاسم الأخصّ العلم على المنزَّلِ على سيدِّنا محمَّدٍ ﷺ، وهو القرآن، لئلّا يلتبس الأمرُ عندَ المخاطبين، فيظنّوا أنَّ المرادَ غير القرآن، وفيه نكتة أخرى، وهي أنَّه لمّا كان لفظ القرآن مأخوذًا منَ القَرءِ بمعنى الجمع، وكان الكلام في سياق الامتنان العظيم الذي خُصَّ به سيّدنا محمَّد ﷺ أفاد التّعبير بالقرآن دون غيرِه أنَّه هو الحاوي لجميع علوم الأولين والآخرين مما في جميع الكتب السّالفة وغيره[1].

نكتةُ الوصفِ بـ﴿ٱلۡعَظِيمَ﴾:

القـرآن كـلام الـلـه، وهـو صفته، وكـلام العظيم عظيم

لمّا كان القرآن قد جمعَ علومَ الأوّلين والآخرين ممّا في الكتب المنزّلة استحقَّ وصفَه بالعظمةِ؛ كما أنَّ القرآنَ لمّا كانَ كلامَ اللّٰه تعالى الصّادر منَ العظيم كان وصفُه بالعظيم تنويهًا بعظمةِ اللّٰه وصفتِه، وتحقيقًا للوصف اللازم له[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/86.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/81.